المسلم والجمال

بقلم دكتور محمد عماره

المسلم والجمال

الزينة التي يطلبها الإسلام:

لا يحسبن أحد أن الزينة التي يطلبها الإسلام ويأمر بها مقصورة على الثياب الحسنة والطيب وحسن التجمل فقط عند المثول بين يدي الله في الصلاة، ذلك أن الزينة إذا كانت اسمًا جامعًا لكل شيء يُتزين به، فإن مصادر طلبها، ومواطن الإحسان بها مبثوثة في كل آيات الجمال التي خلقها الله وأبدعها وأودعها في سائر أنحاء هذا الوجود.

أ.د/ محمد عمارة(*)

ولقد ميز الإسلام ما بين طلب الجمال والاستمتاع به عندما يحكمه الاقتصاد والاعتدال، وعندما يكون شكرًا لأنعم واهب هذا الجمال، وبيَّن الكبر الذي نهى عنه الإسلام وتوعد مقترفيه؛ فعندما قال رسول الله ﷺ في الحديث الذي يرويه ابن مسعود رضي الله عنه: «لا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان، ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر» عند ذلك قال رجل: يا رسول الله إني ليعجبني أن يكون ثوبي غسيلًا، ورأسي دهينًا، وشراك نعلي جيدًا، وذكر أشياء حتى ذكر علاقة سوطه -أفمن الكبر ذلك يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا، ذلك الجمال، إن الله جميل يحب الجمال، ولكن الكبر من سفَّه الحق، وازدرى الناس»[1].

ولقد أباح الإسلام للمرأة أن تتجمل للخُطَّاب إظهارًا لنعمة الجمال، وطلبًا للزواج، وفي حديث الصحابية الجليلة سبيعة بنت الحارث الأسلمية -رضي الله عنها- عندما توفي عنها زوجها سعد بن خولة، ووضعت حملها منه برئت من نفاسها تجملت للخطاب، فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك -من بني عبد الدار- فقال لها: مالي أراك متجملة، لعلك ترجين النكاح؟! إنك والله ما أنت بناكح حتى تمر عليك أربعة أشهر وعشر، فذهبت سبيعة إلى رسول الله ﷺ وسألت عن ذلك -عن العدة- وليس عن التجمل للخطاب، فلم يكن ذلك موضع خلاف،

(*) عضو هيئة كبار العلماء -رحمه الله-.

(1) رواه مسلم من حديث عبد الله بن مسعود، برقم: ٩١ بنحوه.

قالت: «فأفتاني رسول الله ﷺ بأني قد حللت حين وضعت حملي، وأمرني بالتزويج إن بدا لي»[٢].

ووجدنا القرآن الكريم يتحدث عن زينة الأرض وزخرفها كمهمتين من مهام خلافة الإنسان عن الله في عمرانها، لن تنتهي هذه الخلافة بطي صفحة هذه الحياة الدنيا، إلا إذا بلغ الإنسان الشأو في هذا السبيل: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (يونس: ٢٤)

الاستشعار بآيات الجمال:

ولقد كان منهج النبوة الذي تجسد في سلوك الرسول ﷺ في خاصة نفسه، ومع أهله، وفي تشريعه للناس، كان هذا المنهج بصدد التربية الجمالية والسلوك الجمالي، البيان العملي والممارسة التطبيقية للبلاغ القرآني الذي شرع الله فيه منهج الإسلام في هذا الميدان، فهذا الرسول ﷺ الذي جاء رحمة للعالمين، كان النموذج الأرقى للإنسان الذي يستشعر كل آيات الجمال في خلق الله، ويلفت النظر بهذا السلوك الجمالي، ليغدو سنة متبعة في مذهب الإسلام وحضارة المسلمين.

لم يكن الرسول ﷺ مترفًا ولا مستغنيًا، ولكن الله قد أغناه عن الحاجة بعد أن كان فقيرًا عائلًا: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ (الضحى: ٨)

لم يكن الراهب الذي يقيم الخصام بين مملكة الأرض ومملكة السماء، ولا الناسك نسكًا أعجميًّا الذي يدير ظهره للدنيا وطيباتها، إنما كان يقبل الهدية، ويهدي إلى الناس، وكان يتصدق دون أن تتطلع نفسه أو تمتد يده إلى شيء من الصدقات، كان له من المال ما يكفيه وأهله، كإمام للدولة، وبمقاييس بساطة تلك الدولة ودرجتها في ذلك الزمان وذلك المكان، كان المال في يده، ولكنه لم يستول على قلبه في يوم من الأيام.

ونحن إذا شئنا أن نتلمس في سيرته -في خاصة نفسه- نماذج شاهدة على رقيه وارتقائه في السلوك الجمالي والإحساس بالجمال إننا واجدون الكثير؛ يروي ابن عباس ﷺ فيقول: «كان رسول الله ﷺ يتفاءل ولا يتطير، ويعجبه الاسم الحسن»[٣]، والذين يتأملون هذا السلوك في ضوء قضيتنا يدركون أن التفاؤل إنما هو ثمرة لرؤية إيجابيات الواقع وجماليات المحيط، وهو ضد التشاؤم الذي لا يرى صاحبه سوى القبح والسلبيات، وأيضًا هو غير السذاجة التي لا يبصر صاحبها لا الإيجابيات ولا السلبيات، فالتفاؤل موقف إيجابي من

(٢) رواه البخاري برقم: ٣٩٩١، ورواه مسلم برقم: ١٤٨٤.
(٣) رواه الإمام أحمد من حديث ابن عباس، برقم: ٢٣٢٨.

جماليات الحياة، وإيجابيات المحيط ولا يتطير؛ لأن المتطير هو الذي لا يرى من الأشياء إلا جانب القبح والشؤم، على حين أن في هذه الأشياء -كل الأشياء- من وجوه الخير والجمال ما يطرد التطير والتشاؤم عن الذين يبصرون هذا الخير وهذا الجمال ويعجبه الاسم الحسن، أي إنه ﷺ قد بلغ في استشعار آثار الجمال إلى الحد الذي جعله يلمحها حتى في الأسماء، فهو يدرك أثر العنوان في الدلالة والإيماء إلى المضمون والموضوع.

ثم أي رقي في الجمال والتجمل يبلغ ذلك الذي تحدث عنه خادمه أنس بن مالك ﷺ عندما وصف هذا الجانب من حياته فقال: «ما شممت عنبرًا قط، ولا مسكًا، ولا شيئًا أطيب من ريح رسول الله ﷺ، ولا مسست قط ديباجًا ولا حريرًا ألين مسًّا من كف رسول الله ﷺ، كان أزهر اللون، كأن عرقه اللؤلؤ»[٤].

تُرى، هل هناك في الجمال والتجمل أرقى من ذلك الذي كان، كأن عرقه اللؤلؤ؟! هذا هو رسول الله، جسّد في عشقه للجمال وارتقائه على دربه، منهج الإسلام في التربية الجمالية فكانت حياته -في خاصة نفسه- التجسد لسنته التي علمنا إياها عندما قال: «إن الله جميل يحب الجمال».

الاستمتاع بجماليات الحياة:

أما سيرته الجمالية في أهله فإنها هي الأخرى، نموذج للجمال الراقي وللرقي الجمالي، تدهشنا اليوم بعد أكثر من أربعة عشر قرنًا، فما بالنا إذا تصورناها في ذلك التاريخ؟!

هذا هو النبي الذي يأتيه الوحي، ويبلغ رسالة ربه، ويقود الدولة، ويرعى الأمة، ويكاتب الملوك، ويقاتل صناديد الشرك، وينهض بتغيير وجه الحياة على الأرض ... إنه ﷺ يمارس السباق مع زوجته عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها- وأين؟ ليس سرًّا وراء الجدران والأبواب المغلقة، وإنما في الطريق وهم مسافرون.

تروي عائشة -رضي الله عنها- حديث هذا الخلق الراقي في الاستمتاع بجمال الحياة، وفي الأخذ بحظه من طيباتها، فتقول: «خرجت مع النبي ﷺ في بعض أسفاره وأنا جارية[٥] لم أحمل اللحم ولم أبدن، فقال للناس: «تقدموا»، فتقدموا، ثم قال لي: «تعالي حتى أسابقك»، فسابقته فسبقته، فسكت عني حتى إذا حملت اللحم وبدنت ونسيت، خرجت معه في بعض أسفاره، فقال للناس: «تقدموا»، فتقدموا ثم قال: «تعالي حتى أسابقك»، فسابقته، فسبقني.. فجعل يضحك وهو يقول: «هذه بتلك»»[٦].

إننا نسوق هذا الطرف من سيرة رسول الله ﷺ لا لنعجب أو نستدر العجب، وإنما لنقول: إن هذا هو المنهج الطبيعي والوحيد للإسلام

(٤) رواه مسلم من حديث أنس بن مالك برقم: ٢٣٣٠.
(٥) أي صغيرة شابة.
(٦) رواه الإمام أحمد برقم: ٢٦٢٧٧، ورواه النسائي برقم ٨٨٩٤.

في علاقة المسلم بجماليات الحياة، منهج: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ (القصص: ٧٧)

ولقد أحسن الله إلينا بآيات الجمال التي زين بها كل ما في الوجود، والإحسان المقابل هو أن نحسن الاستقبال لهذه النعم الإلهية، ونرتقي بقنوات وأدوات وحواس استشعارها والاستمتاع بها شكرًا له على ما أنعم، وإقامة للتوازن والوسطية الإسلامية التي وإن أنكرت الترف والإسراف في الملذات، فإنها تنكر الرهبانية ونسك الأعاجم وإدارة الظهر لطيبات الحياة، إنه المنهج الذي يعلمنا أن كل عمل يرتقي بإنسانية الإنسان حتى ما كان منه لهوًا يروح عن النفس، ولذة حلالًا، فهو عبادة لله، يستمتع بها الإنسان في دنياه، وتكتب له بها الحسنات التي يوفاها في أخراه، يقول رسول الله ﷺ: «عجبت من قضاء الله عز وجل للمؤمن، إن أصابه خير حمد ربه وشكر، وإن أصابته مصيبة حمد ربه وصبر، المؤمن يؤجر في كل شيء حتى في اللقمة يرفعها إلى في امرأته»(٧).

إنه منهج العشق الحلال للطيب من آيات الجمال، ينفي -بل يستنكر- ذلك التجهم الذي يفتعل الخصام بين المسلمين وبين طيبات وجماليات هذه الحياة، فالمسلم لن يستطيع أداء فريضة الشكر لله على نعمة الجمال، إلا إذا عرف واستمتع بأنعم الله -عز وجل- في هذا الجمال.

❊ ❊ ❊

(٧) رواه الإمام أحمد عن عمر بن سعد، عن أبيه، رقم: ١٤٨٧.